Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (4), Issue (1): 30 Jan 2020
P: 55 - 71

ISSN: 2522- 3380

مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (4)، العدد (1): 30 يناير 2020 م
ص: 55 - 71

The connotations of the absence of feeling structures in the Koranic systems: Analytical rhetorical study

Sami Saleh Al- Ghamdi

Ministry of Education || Medina || KSA

Abstract: This study focused on the conditions of absentees and cases of lack of feeling in each shrine, the importance of the study is to contribute to the management of the Koran and the development of the text and highlighting the text, by standing on the implications of structures; to enrich the aesthetics of this Koranic systems in the context of the palace, and then the implications of structures in the context of Igal, and then the implications Compositions in the context of the question, then the semantics of the compositions in the context of enabling the comma, and then the semantics of the compositions in the context of supplementation or precaution, and all this is done in an analytical inductive approach to the Quranic systems, with the use of vocabulary and structures and context, and the story of the Koran and its elements, verse and formulation, And the beginning of the verse and the middle and conclusion, then the researcher mentioned the results, such that the phrase (they do not feel) requires the current generally or common, has come to depict the attitudes of absentees live, Valmosofon not to feel infidels and polytheists and hypocrites only in two places, and other private and public results, then the researcher has developed two recommendations and an index of sources and references.

Keywords: Implications- Quranic systems- structures- lack of feeling- absentee.

دلالات تراكيب عدم شعور الغائبين في النظم القرآني: دراسة بلاغية تحليلية

سامي بن صالح الغامدي

وزارة التعليم || المدينة المنورة || المملكة العربية السعودية

الملخص: ركزت هذه الدراسة بأحوال الغائبين وحالات عدم شعورهم في كل مقام، فتكمن أهمية الدراسة في الإسهام في تدبر القرآن واستنباط ملابسات النص وإبرازها، من خلال الوقوف على دلالات التراكيب؛ لإثراء جماليات هذا النظم القرآني في سياق القصر، ثم دلالات التراكيب في سياق الإيغال، ثم دلالات التراكيب في سياق الاستفهام، ثم دلالات التراكيب في سياق تمكين الفاصلة، ثم دلالات التراكيب في سياق التكميل أو الاحتراس، وكل ذلك يتم بمنهج استقرائي تحليلي للنظم القرآني، مع الاستعانة بالمفردات والتراكيب والسياق، والقصة القرآنية وعناصرها، والآية وصياغتها، ومطلع الآية ووسطها وخاتمتها، ثم قام الباحث بذكر النتائج ومن ذلك أن جملة (وهم لا يشعرون) حالية يقتضي عمومًا أو شيوعًا، وقد جاءت لتصوير مواقف الغائبين بصورة حية، فالموصوفون بعدم الشعور كفار ومشركون ومنافقون إلا في موضعين، وغيرها من النتائج الخاصة والعامة، ثم وضع الباحث توصيتين وفهرسًا للمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: دلالات- النظم القرآني- التراكيب- عدم شعور- الغائبون.

المقدِّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه أزكى الصلوات، أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو دستور الأمة الخالد، الذي ستظل تنهل منه إلى قيام الساعة، وهو بلغة عربية فصيحة مختارة لتكون وعاء بيانه، ومستودع إعجازه، أمدها الله- سبحانه- بخصائص ذاتية انفرد بها في حروفها، ومفرداتها، وتراكيبها، فتتمكن من تحمُّل ما يجعله الله فيها من أسرار حكمته، وما يشيعه فيها من أنوار هدايته، ثم وهب –سبحانه- معرفة لأهل اللغة والبيان والفصاحة والبراعة ما تمكنهم من الولوج إلى خصائص النظم القرآني، لاستنباط ما يهيدهم الله إليه من عجائب أسراره.

لهذا كانت "دلالات تراكيب عدم شعور الغائبين في النظم القرآني- دراسة بلاغية تحليلية"- .

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها

حال شعور الغائبين هو وصف منصوب أو في محلِّ نصب، يُذكَر فَضَلةً في الجملة الفعلية لبيان هيئة صاحبه وقت حدوث الفعل، والحال دائماً ما يكون اسماً مُنَكَّراً، فجاءت الدراسة هنا بدلالات تراكيب مختلفة لتجيب عن التساؤلات التالية:

1. هل التراكيب البلاغية مترابطة في النظم القرآني مع الشواهد المختارة؟
2. كيف يمكن تحليل وتفسير وتعليل حالات عدم شعور الغائبين في سياق الآيات؟
3. كيف يتمُّ تصنيف التراكيب حول الشَّواهِد القرآنية؟
4. كيف تولَّدت التراكيب من رحِم الشاهد القرآني؟ وهل انسجمت مع تطبيقات البلاغيين ومسائلهم المتعلّقة بعلم المعاني، أم كان الأمر خلاف ذلك؟
5. هل هناك علاقة بين أحوال الغائبين، أم هم على نسق واحد؟

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى تحقيق الآتي:

1. بيان مدى ترابط التراكيب البلاغية في النظم القرآني مع الشواهد المختارة.
2. تحليل وتفسير وتعليل حالات عدم شعور الغائبين في سياق الآيات.
3. توضيح كيف يتمُّ تصنيف التراكيب حول الشَّواهِد القرآنية.
4. بيان الكيفية التي تولَّدت منها التراكيب من رحِم الشاهد القرآني، وانسجامها مع تطبيقات البلاغيين ومسائلهم المتعلّقة بعلم المعاني.
5. بيان طبيعة العلاقة بين أحوال الغائبين.

أهمية الدراسة:

دراسة النظم القرآني الذي هو وجه من وجوه إعجاز القُرْآن ذات أهمية عالية، فالنظم هو طريقة الكلام وأسلوبه، وارتباط آي القُرْآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني والمباني، وكل ذلك سيكون بدلالات تراكيبة بليغة، وعلى هذا فتكمن أهمية الدراسة في النقاط التالية:

1- تتعدد سياقات المعاني في قوله تعالى: (لَا يَشْعُرُونَ) التي بلغت إحدى وعشرين موضعًا، وتتفاعل الخصائص البيانية القرآنية لبلاغتها الفائقة، فهي تحتاج إلى تفصيل خاص في مجالات النحو والبلاغة والتفسير وعلوم اللغة وغيرها، ففي فهم تلك المعاني واستنباط ملابسات النص وإبرازها، وما يحف به من قرائن الأحوال والمقال، إثراء لجماليات هذا النظم القرآني.

2- أن النظم القرآني يفهم في ضوء سياقاته المقالية والحالية، فهي تسهم في تدبر القرآن، ووضع الأسس العلمية التي يقوم عليها.

3- أن النظم القرآني ليس في مرتبة واحدة في الدلالة والوضوح، فمنه المجمل، ومنه المشكل، ومنه المحتمل، وتلك الأنواع ونظائرها تحتاج إلى ما يساعد على بيانها، والقرائن والسياقات بأنواعها من أعظم ما يدل على معانيها، قال ابن القيم (ت: 751هـ): "السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام...، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) [الدخان: 49] كيف تجد سياقه –أي العزيز الكريم- يدل على أنه الذليل الحقير"[1].

4- قد تفتح آفاقًا لأبحاث أخرى مكملة ومشابهة لموضوع الدراسة الحالية.

الدراسات السابقة:

وجدت أن من أقرب الدراسات التي اتفقت في عنوانها هي: "دلالات التراكيب دراسة بلاغية" للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى، فقد تناول أبواب علم المعاني الأخيرة كالقصر والإنشاء الفصل والوصل مع الفيض الواسع من الشواهد ثم قام بتحليلها، وقد يتشابه البحث مع أبحاث أخرى منشورة مثل (دلالة سياق الفاعل في الحديث الشريف) (قضايا الدلالة في القرآن) (التطور الدلالي للنص القرآني) (دلالة السياق في النص القرآني) (دلالة العدول الصرفي في القرآني) لكن هذه الدراسة المركزة لم يسبق –في حدود علم الباحث- تأليف في هذا المجال، ولذا يعدّ هذا البحث سدًا لثغرة في المكتبة البلاغية القرآنية.

منهج الدراسة:

اتبعت المنهج الاستقرائي التحليلي للوقوف على عبقرية اللغة في قوله تعالى: (لَّا يَشْعُرُونَ) من خلال الكشف عن دلالات تراكيب عدم شعور الغائبين، وملابسات سياق النظم القرآني.

خطة الدراسة تكون على الشكل التالي:

- المبحث الأول: دلالات التراكيب في سياق القصر
- المبحث الثاني: دلالات التراكيب في سياق الإيغال
- المبحث الثالث: دلالات التراكيب في سياق الاستفهام
- المبحث الرابع: دلالات التراكيب في سياق تمكين الفاصلة
- المبحث الخامس: دلالات التراكيب في سياق التكميل أو الاحتراس
- النتائج والتوصيات
- المصادر والمراجع

ولا أريد أن تطول المقدمة أكثر من اللازم؛ فحين تتفرغ من قراءة البحث ربما تتفق معي أو تختلف، لكنه حتمًا سيدفعك بلطف إلى التأمل والتفكير، والحمد لله أولًا وآخرًا.

(1) (ابْن القَيِّم الجَوْزِيَّةِ، 2006، 4/ 1314).

المبحث الأول: دلالات التراكيب في سياق القصر

يتميز القصر بأسلوبه الفريد، وبجملة من التقسيمات والأحوال التي تتفاوت معه دقائق المعاني، وتتكشف الدلالة في الأحوال المختلفة من طرقه، وقبل الولوج في تحليلات الآيات الكريمة، ينبغي أن نتعرف على كلام ابن فارس ليكشف جوانب المعنى الاصطلاحي للقصر، فقال: «القاف والصاد والراء أصلانِ صحيحان، أحدهما يدلُّ على ألا يبلُغَ الشّيءُ مدَاه ونهايتَه، والآخر على الحَبْس، والأصلان متقاربان، فالأوّل القِصَر: خلافُ الطُّول، يقول: هو قَصيرٌ بيّن القِصَر، ويقال: قصَّرتُ الثَّوبَ والحبلَ تَقصيراً... والأصل الآخر، وقد قلنا إنهما متقاربان: القَصْر: الحبس، يقال: قَصَرْتُه، إذا حبستَه، وهو مقصور، أي محبوس، قال الله تعالى: (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ) [الرحمن: 72] وامرأةٌ قاصِرَة الطَّرف: لا تمدُّه إلى غيرِ بَعلِها، كأنَّها تحبِس طرْفَها حَبْساً»[2].

فالأصل الثاني هو الذي دار عليه كلام البلاغيين، فالقصر لا يعدو أن يكون حبس صفة على موصوف، أو حبس موصوف على صفة، وأما القصر الاصطلاحي فهو: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص[3]، فالمعنى اللغوي والاصطلاحي بينهما صلة وثيقة، وهذا الحد سيكشف لنا سر الآيات التي جاءت بالتعبير بعدم الشعور الغائبين في ظل هذا اللون البلاغي، وسأتناول الآيات بالتحليل البلاغي.

فقوله تعالى: (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) [البقرة: 9]، بدأت الجملة بالفعل المضارع (يخادعون) المرفوع بثبوت النون و(الواو) ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل، وهذا يدل على أنهم فئات من المجتمع، ومن المعلوم أن الفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار، فهم لا يزالون يمارسون الخداع ويجددون طرق المكر، ذاهبون فيه كل مذهب، في كل وقت وفي كل حين، مع أن المخادعة تقبل في حق من تخفى عليه الأمور، ليتم خداعه من حيث لا يعلم، ولكن الله لا يخفى عليه شيء، لكنهم يخادعون رسول اللّه –صلى الله عليه وسلم- إذ معاملة اللّه معاملة رسوله –صلى الله عليه وسلم- لقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) [الفتح: 10] فسمّى نفاقهم خداعا من قبيل المجاز العقلي؛ لشبهه بفعل المخادع.

وقوله تعالى: (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (الواو) حاليّة، (ما) نافية، (يخدعون) مضارع مرفوع مثل يخادعون في الإعراب، وإلا فإنّ المعنى مختلف جدًا، فـ(يخادعون) الألف فيه للمفاعلة، أي: يظنّون أن الله يمكن أن يخدع، ولذلك أخفوا الكفر وأظهروا الإيمان، وقالوا: نحن مؤمنون، وأما (يخدعون) بدون ألف المفاعلة، أي عاقبة الخداع وقعت عليهم، ولا شكّ أنهم بنفاقهم وكذبهم خدعوا أنفسهم، فالله لا يُخدع، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، (إلا) أداة حصر وقصر، (أنفس) مفعول به منصوب، و(الهاء) في محلّ جرّ مضاف إليه، (الواو) حاليّة، (ما) نافية، (يشعرون) مثل يخدعون في الإعراب، وجملة: (ما يشعرون) في محلّ نصب حال من فاعل يخدعون، ونفي الشعور يدل على نفي العلم بحصول الشيء الحاصل، فالإشعار: الإعلام بمعلوم من شأنه أن يخفى ويدق، يقال: شعر فلان بكذا، أي علمه وتفطن له[4]، فخصص المقام خداعهم أنفسهم وأثبت عدم شعورهم، فختم الآية بهذه الفاصلة المعنوية، التي يسميها البلاغيون إيغال- وهو من أنواع الإطناب- : وهو أن يختم الكلام بزيادة يتم المعنى بدونها، ولكنها لا تخلو من الفائدة والتوكيد[5].

---

(2) (ابن فارس، 1979، 5/ 97).

(3) ينظر: (السكاكي، 1998، ص: 288).

(4) ينظر: (ابن منظور، 1993، 4/ 409).

(5) ينظر: (القزويني، 1998، 3/ 202).

في هذه الآية الكريمة قصر الصفة على الموصوف بالنفي والاستثناء، وهي من أكثر أدوات القصر اتساعًا، فهذه الصفة ثابتة على المنافقين لا تتعداهم إلى موصوف آخر، فالخداع عاد على أنفس المنافقين، حيث يمنونها الأباطيل ويكذبونها فيما يحدثونها به، وأنفسهم كذلك تمنيهم وتحدّثهم بالأمانى[6]، فـ(أنفسهم) جمع نفس، وهو اسم جامد بمعنى الذات أو الروح أو الجسد، ووزن (أنفُس) أفعُل بضم العين وهو من جموع القلّة، فهذا الخداع وتلك المخادعة تعود على تلك النفوس القليلة الهينة الذليلة، وزاد في المعنى زيادة حسنة بأنهم لا يحسون ولا يشعرون بخداع أنفسهم، فما قدروا الله حق قدره، فليُتأمل هذا الكلام المعجز.

وقوله تعالى: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ) [البقرة: 12]، فالمتأمل في النظم القرآني يدرك أن أسلوب القصر يأتي بأدوات مختلفة غير النفي والاستثناء، فقد جاء التعبير هنا بطريق القصر من خلال تقديم المسند إليه (هم)، فإن دلالته على القصر بالفحوى لا بأصل الوضع اللغوي، وهذا يكون باستنباط العقل، والاعتماد على الذوق من خلال السياق، وقبل أن نعرف ذلك علينا أن نتأمل ذلك اللون البلاغي ودلالته على عدم الشعور.

جملة: (لا يشعرون) في محلّ نصب حال من الضمير المستكنّ في اسم الفاعل (المفسدون)، وعلى هذا فتقديم المسند إليه (هم) يفيد قصر الإفساد على المنافقين دون غيرهم لاختصاصهم به، وقد يكون قصراً وتأكيدًا في سياق واحد، فقد قصرت الآية صفة الإفساد على الموصوفين بالنفاق قصرًا حقيقيًا ادعائيًا، لأنّ من الناس من هو مفسد وليس منهم، ولكن الإعجاز في الآية يبين حقيقتهم، وأن إفساد غيرهم لا يسمّى إفسادًا، من خلال القياس بفعل المنافقين لشدة مكرهم وفساد قلوبهم، فضمير الفصل (هم) فصل بين ركني الجملة –المسند والمسند إليه- ، ثم ختمت الآية باستدراك فاصلة التعبير بعدم شعور أولئك المنافقين أنهم هم المفسدون الحقيقيون لا غيرهم، فتأمل هذا الإعجاز والإيجاز.

وقوله تعالى: (وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) [آل عمران: 69]، سبق الحديث عن قصر الصفة على الموصوف بأداة النفي والاستثناء، وهذه الآية الكريمة فيها تلك الأدوات، وقبل التحليل البلاغي ينبغي علينا أن ندرك الموقع الإعرابي لجملة: (ما يشعرون) فهي في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال.

فـ(لو) شرطية مستعملة في التمني يدل عليه فعل (ودت)، أي ودوا إضلالكم وإبعادكم عن دين الله، وهو يحتمل أنهم ودوا أن يجعلوهم على غير هدى من الله، فيذبذبوهم، ويحتمل أن المراد الإضلال في نفس الأمر، وإن كان ود أهل الكتاب أن يهودوهم. وعلى الوجهين يحتمل.

وأما قوله تعالى: (وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ) فقد جاء قصر صفة الإضلال على اليهود أنفسهم، فالضلال يخصهم وحدهم لا يتعداهم إلى غيرهم، فإذا أضلوا الناس فقد صاروا هم أيضا ضالين، فهم كانوا من قبل ضالين برضاهم بالبقاء على دين منسوخ، وقوله: (وَمَا يَشْعُرُونَ) إيغال.

يتبين من ذلك أن جملة القصر بالنفي والاستثناء تأتي في مقام صراع الحق مع الباطل، فآية البقرة تكشف ضلال المنافقين، وهذه الآية الكريم تبين فساد وضلال اليهود، فهي تحمل الخصم بالإقناع إلى الميل إلى فكرة معينة، فهي تنزع إلى الحسم والتأكيد مع ما يصحب ذلك من ألوان المعاني كالإيغال والإيجاز.

وقوله تعالى: (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) [الأنعام: 26]، لا تزال الآيات الكريمة تحمل في طياتها الإعجاز البياني، فقد خاطبت المؤمنين بأسلوب القصر، فنلحظ أن القصر في هذه الآيات لم نتحدث عنه بعد، هو القصر الإضافي الذي يُخاطب به من يعتقد العكس، ويسمى قصر القلب.

(6) ينظر: (الزمخشري، 1987، 1/ 58).

لا يمكن فهم هذه الآية حتى يُفهم السياق التي وردت فيه، فقد جاءت آية قبلها تتحدث عن صد الكفار للقرآن، قال تعالى: (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) فعطف على جملة (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)، فالضميران المجروران عائدان إلى القرآن المشار إليه باسم الإشارة في قولهم: (إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)، والمراد بالنهي عنه النهي عن استماعه من الرسول –صلى الله عليه وسلم- ، وكذلك النأي عنه معناه الابتعاد عن استماعه، أي هم ينهون الناس عن استماعه ويتباعدون عن استماعه.

والمراد من هذ التفصيل في سياق الآية أن القصر في قوله: (وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) قصر إضافي باعتبار حال المخاطب، ويتنوع القصر الإضافي حسب حال المخاطب، فالكفار هنا يعتقدون أنهم إذا قاموا بتلك الممارسات الفعلية بالنهي عن استماع القرآن والابتعاد عنه أنهم يضرون الرسول –صلى الله عليه وسلم- فلا يتبعه أحد من الناس، فقصرت الآية الكريمة صفة الهلاك على الكفار أنفسهم لا تتجاوزهم إلى غيرهم، ومن الواضح أن التنافي متحقق بين الصفة المثبتة والصفة المنفية، لذلك جاء قصر القلب ليقلب اعتقادهم وتصورهم، من خلال سعيهم الحثيث في إشعال نار الفتنة والعداوة وتضليل الناس، فانقلبت عليهم تلك الضلالات إلى هلاك وحسرة وندامة.

ثم خُتمت الآية بعطف عدم شعورهم بتلك المصيبة التي ستقع على رؤوسهم يوم لا ينفع مال ولا بنون، فزاد التعبير في تحقيق خطأ اعتقادهم، وأصبحت تلك حالتهم المستمرة، مع انهم يُعتبرون من أوفر الناس عقلًا ودراية وفهمًا، وهذا إيغال وزيادة تأكيد لمعنى عدم العلم الحاصل بالشيء، فجاء التعبير بعدم الشعور ليزيد في تحقيق ضعف تلك العقول، وكذلك العقوبة المعجلة عليهم في الدنيا بانتصار الإسلام وهلاك الكافرين، وجاء التعبير بفعل الهلاك لأن أعظم الهلاك هو الموت، ويطلق على المضرة الشديدة، فإن الله يعذب الكفار في أنفسهم عذابًا معنويًا، من المذلة والضيق والهم والغم، من خلال انتشار الإسلام ونصرة الدين الحق.

وقوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) [الأنعام: 123]، هذه الآية تصور حال المفسدين في كل مكان وكل زمان، وليت الذين يفسدون في الأرض يدركون فحوى قوله تعالى: (وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) فجملة (ما يشعرون) في محلّ نصب حال من فاعل (يمكرون)، فمكرهم يعود عليهم قبل الناس، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

عطف على جملة: (كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأنعام: 122]، فلها حكم الاستئناف البياني، لوجود سبب آخر من أسباب استمرار المشركين على ضلالهم، هو مكر أكابر قريتهم- مكة- بالرسول –صلى الله عليه وسلم- والمسلمين، فقوله: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ) فالجعل: بمعنى الخلق ووضع السنن الكونية التي لا تتبدل، وهي سنن خلق أسباب الخير وأسباب الشر في كل مجتمع، فأولياء الشياطين يتواصون الشر والصد عن سبيل الله، فأمرهم ليس ببدع ولا خاص بأعداء هذا الدين، فإنها سنة المجرمين مع الرسل الأولين، وقد يكون الجعل بمعنى التصيير، ثم إنّ الصراع بين الخير والشر يكون بمقدار غلبة أحدهما على الآخر، ومن أجل ذلك لم يزل

وفي قوله تعالى: (أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا) إيجاز لأنه أغنى عن أن يقول جعلنا مجرمين وأكابر لهم وأن أولياء الشياطين أكابر مجرمي- أهل مكة- ، وقوله: (لِيَمْكُرُوا) مكرهم ليس بعظيم الشأن لأنه متعلق بـ (جَعَلْنَا) أي ليحصل المكر، وفيه تنبيه على أن والمعنى: وكذلك جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها، كما جعلنا في كل قرية مثلهم، وإنما عمم الخبر لقصد تذكير المشركين في مكة بما حل بالقرى من قبلها، مثل قرية الحجر، وسبأ، والرس.

وتقديم الجار والمجرور في قوله: (فِي كُلِّ قَرْيَةٍ) على المفعول يدل على غلبة الفساد عليهم، وإشعار رسول الله– صلى الله عليه وسلم- بضرورة الهجرة من تلك القرية، وإيذان باقتراب زوال المجرمين، واللام في (لِيَمْكُرُوا) لام التعليل

كما تقدم، فلله تعالى في إيجاد المجرمين حكم جمة، ليظهر زوال الباطل بين يدي الحق بعد الصراع الطويل؛ ويجوز أن تكون اللام المسماة لام العاقبة كما تقدم، فتتعاور الحروف كما ذهب إليه النحاة، فاللام لمعنى فاء التفريع، كالتي في قوله تعالى: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) [القصص: 8]، فكان لهم موسى–صلى الله عليه وسلم- كذلك، والمكر: إيقاع الضر بالناس خفية وتحيلا، والمراد بالمكر هنا تحيل زعماء المشركين على الناس في صرفهم عن النبي –صلى الله عليه وسلم- وعن متابعة الإسلام، قال مجاهد: كانوا جلسوا على كل عقبة ينفرون الناس عن اتباعه –صلى الله عليه وسلم- .

وقد حذف متعلق: (لِيَمْكُرُوا) وهو المسند الجار والمجرور لظهوره، أي ليمكروا بالنبي –صلى الله عليه وسلم- ، ظنّاً منهم بأنّ صد الناس عن متابعته يضره ويحزنه، وأنه لا يعلم بذلك، ولذلك قال الله تعالى: (وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)، ثم تأتي جملة القصر الإضافي باعتبار حال المخاطبين بطريق النفي والاستثناء، فالواو حالية، فحالة مكرهم ذلك أنهم إنما يضرون أنفسهم، وما كان هذا المعنى ليتم لولا قصر القلب، فقصرت صفة المكر على الموصوف وهم أكابر المجرمين، لا تتعداهم إلى غيرهم، فالنبي –صلى الله عليه وسلم- لا يلحقه أذى ولا ضر من صدهم الناس عن اتباعه، بل يلحق الضر الماكرين، والباء في (بِأَنفُسِهِمْ)، بأنفسهم للإلصاق، فينتظرهم في الدنيا: القتل والخزي والأسر، وفي الآخرة: عذاب النار إن لم يؤمنوا، فالضر انحصر فيهم على طريقة القصر، وقوله: (وَمَا يَشْعُرُونَ) جملة حال ثانية، وهنا سر التعبير بعدم شعورهم بحالة مكرهم بالنبي–صلى الله عليه وسلم- ، أنهم ما يمكرون إلا بأنفسهم، لتزيد المعنى تأكيدًا ووضوحًا.

وقوله تعالى: (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) [النمل: 65]، هذه الآية الكريمة جاءت في سياق آيات سبقتها، ومرتبطة بها، تحدثت عن نعم الله على الناس، كخلق السماوات والأرض، وإنزال الماء للري والنبات، وجعل الأرض قرارًا بالرواسي، وشق الأنهار بينها، وجعل بين البحرين حاجزًا، وإجابة المضطر، وكشف السوء، وجعل الخلافة في الأرض، والهداية في ظلمات البر والبحر، وإرسال الرياح، وبداية الخلق وإعادته، والأرزاق من السماء والأرض.

فهذه الآية نفت علم الغيب لأحد من المخلوقات، بقوله: (الَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)، فأبطل اللجوء إلى الكهان والعرافين والسحرة بادعاء علم الغيب، والأصنام التي كان المشركون يظنون أنها تجلب النفع وتدفع الضر، فجاء الرد بقوارع الآيات المحكمات بكل وجه، فإن مقام العقيدة مقام بيان يناسبه الإطناب، ثم جاءت هذه الآية التي تحمل في طياتها الجملة البيانية ببلاغة أسلوب القصر، بطريق النفي والاستثناء، وتأسيس هذا المبدأ بأن الله هو خالق كل شيء، اقتضى النص على المثبت والمنفي معًا، فأوجزت الآية بالقصر كل الألفاظ والمعاني، فكل ما ذكر من تلك النعم في الآيات السابقة لهذه الآية يدخل في الغيب، فبدأ بالخاص حتى انتهى بالعام، فالغيب عام يدخل فيه العلم بكل ما هو كائن من أول الخلق إلى يوم القيامة.

ثم أردف بعد جملة القصر نفيًا آخر، ولكنه ليس بصحبة الاستثناء، بل نفي عام، وهو نفي علم المشركين بوقت البعث والنشور في قوله تعالى: (وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)، فالزاعمون- الغائبين- لعلم الغيب لا يشعرون بوقت بعثهم، فالآيات السابقة لهذه الآية مثبتة أنّ الله الحي القيوم بكل صور الربوبية المحضة، وآية القصر نفت علم الغيب لكل ما عدا الله، ثم أثبتت أن علم الغيب لله وحده، لا يشاركه فيه أحد من خلقه، فتأمل هذا الإعجاز البياني وتفكر فيه.

وقوله تعالى: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [الزُّخرُف: 66]، ومن المعلوم أن (هل) دائمًا للاستفهام، ولكنها في هذه الآية الكريمة خرجت إلى معنى النفي، قال ابن هشام: "إنه يراد بالاستفهام بها النفي،

ولذلك دخلت على الخبر بعدها (إلا)"[7]، واقترنت (هل) بـ(إلا) التي للحصر، فأصبحت الجملة تمثل أسلوبًا بلاغيًا فريدًا يقال عنه أسلوب القصر.

والمعنى ما ينظرون إلا الساعة إتيانها، وفي قوله: (يَنظُرُونَ) بمعنى الاستمهال والانتظار[8]، وكأنهم لا يرتقبون من الأمور العظيمة إلا قيام الساعة، فأخفاها –صلى الله عليه وسلم- عن الناس امتحانًا وابتلاءً، فإن الشيء الذي لا تسبقه أمارة لا يُدرى وقت حلوله، فذلك قال: (بَغْتَةً) فحصل لهم من العذاب ما لم يرتقبوه، كيوم بدر وأحد والأحزاب، وقوله: (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) تكميل لجملة القصر المشوبة بهل وكأنها للاستفهام، فجاء التكميل ليوضح ويؤكد أن الساعة أي قيام الساعة ستقوم فجأة بدون علم سابق، ولما كان مدلول (بَغْتَةً) يقتضي عدم الشعور بوقوع قيام الساعة كانت جملة الحال مؤكدة للجملة التي قبلها كما قال ابن عاشور[9]، وفي ذلك معنى التلميح لسرعة ما يحصل فيها.

المبحث الثاني: دلالات التراكيب في سياق الإيغال

خص ابن رشيق الإيغال بالشعر خاصة[10]، والصحيح خلافه؛ فابن أبي الإصبع قد قسم فواصل القرآن، وعدّ الإيغال من بين تلك الأقسام وهو: أن يختم الكلام بزيادة بها المعنى بغيرها[11]، ولكنها لا تخلو من الفائدة والتوكيد، وهو من أنواع الإطناب فيزيد اللفظ على المعنى لفائدة، ولا يشك المتأمل في النظم القرآني ما للفواصل من دور في خدمة المعاني توضيحا، وتقريرًا، وتأكيدًا، فلا يسد مسدها غيرها، فتجد أن أُذن السامع النبيه البليغ تنشدُ لها وتتوقع حضورها، ولنذكر حديث زيد بن ثابت الأنصاري قال: "أملى عليَّ رسولُ الله هذه الآية: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسان مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ) إلى قوله: (خَلْقًا آخَرَ)، فقال معاذ: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، فضحك رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: بها ختمت (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)"[12] [المؤمنون: 12]، فقد كانت أذن معاذ- رضي الله عنه- حاضرة لهذا النظم القرآني المعجز، فعرف ببلاغته العالية حتى أدهشت رسول الله –صلى الله عليه وسلم- فضحك متعجبًا ومعجبًا ببلاغته معاذ- رضي الله عنه-، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم- عنه: «يَتَقَدَّمُ الْعُلَمَاءُ بِرِتْوِهِ»[13].

فندرك بعد ذلك ما للفواصل من قيمة على المعاني، فتأخذ حكم الاستقلال في المعنى وإضافة عليه، وهي بمثابة تعليق يؤدي إلى التوكيد، أو الترغيب، أو التوضيح، أو الإنكار، وفي الغالب تكون جملة اسمية، وبعدها جملة فعلية، تكون في محل رفع خبر، فالتأمل والتدبر في أسرار التعبير بعدم الشعور في النظم القرآني جاء هنا بإيهاب فاصلة الإيغال حتى تقع من الكلام موقعها، ولنتأمل هذه الآيات الكريمة ونعيش في ظلالها.

(7) (ابن هشام، 1985م، ص: 459).
(8) ينظر: (ابن منظور، 1993، 5/ 219).
(9) ينظر: (ابن عاشور، 1984، 18/ 76).
(10) ينظر: (القيرواني، 2000، 2/ 664).
(11) ينظر: (ابن أبي الإصبع، د ت، ص: 91).
(12) (ابن كثير، 1999م ، 5/ 469).
(13) (الهروي، 1983، ص: 24).

قوله تعالى: (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [الأعراف: 95]، لألفاظ القرآن جانب كبير في سموه وعلوه فوق أنماط التعبير الأخرى، وتقوم الألفاظ القرآنية والفواصل خاصة على اعتبارات لم تتحقق لسواها.

والمعنى أن الله بدَّل حالهم، وعوضهم بغير حالهم التي كانوا فيها، من رخاء العيش، وصحة الأبدان، حتى يعلموا أن سلب النعمة عنهم أمارة على غضب الله عليهم؛ لتكذيبهم رسولهم، ثم لما عفو أي كثروا، تقول: عَفا الشَعر والبنتُ إذا كثُر[14]، ردهم الله إلى حالتهم الأولى إمهالًا لهم واستدراجا، فيزدادون ضلالا، فإذا رأوا ذلك تعللوا لما أصابهم من البؤس والضر، بأن ذلك التغيير إنما هو عارض من عوارض الزمان، وأنه قد أصاب آباءهم وأسلافهم من قبلهم، فيبعث الله عليهم العذاب فجأةً، وهذه عادة الله في تنبيه عباده، فإنه يحب منهم التوسم في الأشياء والاستدلال بالعقل والنظر بالمسببات على الأسباب، كما قال تعالى: (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) [التوبة: 126]، لأن الله لما وهب الإنسان العقل فقد أحب منه أن يستعمله فيما يبلغ به الهدى ويقيه من الضلال.

وظاهر الآية أنهم قالوا ذلك الكلام بألسنتهم، ليجادلوا رسل الله حينما كانوا يعظونهم بما حل بهم أو بالأقوام السابقة ويدعوهم إلى التوبة والإيمان ليكشف عنهما الضر، ويجوز أن يكون هذا القول يدور في نفوسهم ليدفعوا بذلك ما يخطر ببالهم، من توقع أن يكون ذلك الضر عقابا من الله تعالى، ثم إنهم قدموا عذرًا أقبح من ذنب؛ ليدفعوا به دلالة الضراء على غضب الله، أن مثل ذلك قد حل بآبائهم الذين لم يدعهم رسول إلى توحيد الله، وهذا من خطأ القياس وفساد الاستدلال، مع الغفلة عن الفارق في قياس حالهم على حال آبائهم، بأن آباءهم لم يأتهم رسل من الله، وأما أقوام الرسل فإن الرسل تحذرهم الغضب والبأساء والضراء أن يحيق بهم.

والمتأمل في دلالة الفاء في قوله: (فَأَخَذْنَاهُم) فهي للتعقيب، والأخذ هنا بمعنى الإهلاك بدلالة إصرارهم وتماديهم وغرورهم، والمعنى أن الله أخذهم عقب تحسن حالهم وبطرهم النعمة، و(نا) الدالة على الفاعلين أضافت إلى المعنى قوة الأخذ والتبديل، وقوله: (بَغْتَةً) أي فجأة، وقوله: (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) هم: مبتدأ، والجملة الفعلية خبر، والجملة حال مؤكدة لمعنى (بَغْتَةً) فحالتهم ومقامهم عدم علمهم بقرب عذاب الله بهم، فلا يشعرون بذلك؛ لأنهم في غيهم سائرون، وعن عذاب الله وقربه منهم غافلون، فزاد الإيغال معنى التأكيد مع تلك البغتة، فقد يأتي العذاب على الأقوام ويشعرون به، كما في حال قوم نبي الله يونس –عليه السلام- فلما رأوا العذاب آمنوا فتاب الله عليهم، وكشف عنهم العذاب، قال تعالى: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) [يونس: 98]، أما في هذه الآية فقد جاء العذاب فجأة، ثم زاد على ذلك معنى عدم شعورهم به، فليس هناك ثمت وقت للتوبة والإنابة وتصحيح الأخطاء، فلم تدع لهم الآية خيارًا في الاسترجاع والإنابة، لأن حالهم في زيادة شرك، وكفر بالنعم، فعبر بزيادة لفظ عدم الشعور تنكيلًا بهم، فالله يمهل ولا يهمل.

وقوله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [يوسف: 15]، المتأمل في سورة يوسف يدرك أن أحداثها الرئيسة تحمل المعاني المتضادة كالكذب والصدق، والبهتان والعفة، وغير الشعور والشعور، والحسد والمحبة، والنظر القريب والنظر البعيد، والجزع والصبر، والحذف والذكر، وغير ذلك، فما ألطف عبارات هذه السورة الكريمة، التي حوت تراكيب ودلالات حوت في طياتها معان جليلة وكريمة، تتدفق في عقل كل من يريد التدبر والتأمل.

(14) ينظر: (الجوهري، 1987، 6/ 2433).

أجاب يعقوب- عليه السلام- بنيه في الخروج بيوسف- عليه السلام- إلى البادية، وعزموا على إلقائه في الجب، ولا شك أن فعل (أجمع) يتعدى إلى المفعول، ومعناه: صمم على الفعل، وجواب (لما) محذوف دل عليه (أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ)، والتقدير: جعلوه فيه، وهذا الإيجاز كثير في هذه السورة المباركة، تقليل في اللفظ لظهور المعنى، والضمير في قوله: (إِلَيْهِ) عائد إلى يوسف –عليه السلام- في قول أكثر المفسرين، أما ابن عطية[15] فالضمير عنده إما عائد ليوسف- عليه السلام- أو يعقوب –عليه السلام- مع ترجيح الأول، ونون التوكيد في (لَتُنَبِّئَنَّهُم) بأنه سيخبرهم في المستقبل بما فعلوه معه، وأنه سيخلصه من هذه المصيبة، وذلك الأمر يستلزم نجاته وتمكنه من إخوته.

وجملة (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) حال من ضمير جمع الغائبين، أي لا يعلمون أننا أوحينا إليه بذلك، وكذلك لتخبرنهم بعد سنين بما فعلوا بك وهم لا يشعرون أنك أخوهم، فالوصف بعدم الشعور ليس قبله عقاب، ولكن لتنبيه مستقبلي فقط لقوله تعالى: (قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ) [يوسف: 89]، فانظر إلى المعنى الذي زاده الإيغال من التوكيد بوعد الله لنبيه، والاطمئنان الذي وقر في صدره، فالتعبير بعدم الشعور هنا جاء ليظهر الحق على فعل الباطل، ففعل إخوة يوسف وإن كانوا أبناء يعقوب- عليه السلام- إلا أن الفعل محرم ويدخل في الفساد، فالغائبون هنا الموصوفون بعدم الشعور أبناء يعقوب- عليه السلام- ، بعكس ما مر معنا في الآيات السابقة، فقد كان الغائبون الموصوفون بعدم الشعور الكفار والمشركين، فالتأمل في سياق الآيات يهدي إلى التحليل القويم، ومن العجيب أن الوصف بعدم الشعور جاء مرتين، مرة في مقدمة سورة يوسف ومرة في آخرها، والأول الموصوف الغائب به إخوة يوسف، والثاني الموصوف الغائب به أهل مكة، والثانية جاءت بالاستفهام.

المبحث الثالث: دلالات التراكيب في سياق الاستفهام

قوله تعالى: (أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [يوسف: 107]، لا ريب أن التعبير في أول الآية بالاستفهام، ثم انتهى بتآزره بالإيغال، الذي يزيد المعنى توكيدًا وتوضيحًا، فالاستفهام هنا هو محور الصياغة، والأساس الذي بُنيت عليه الجملة التي تحمل معان ثواني، فالهمزة في باب الاستفهام أم الباب وهي أحق بالتقديم من غيرها[16].

فمن خلال دلالة السياق واستعمال الآية، والقرائن الدالة مع الوسائل التعبيرية، يتضح أن الاستفهام إنكاري توبيخي، حمل معاني التجهيل والتعجب والتحقير، وكلها معان تمتزج وتتداعى من خلال السياق، فاستعمل الفعل الماضي (أَمِنُوْا) على معنى ما كان ينبغي أن تأمنوا الغاشية والساعة، فالشك في الفعل نفسه، والغرض من الاستفهام أن تعلم وجوده كما ذكر ذلك الشيخ عبد القاهر[17]، فمن المعلوم أن الإنكار إذا وقع بالهمزة فالأصل أن يلي المنكر همزة الاستفهام، فدخلت الهمزة على الفعل لإنكاره، وهذا الاستفهام الانكاري مترتب على ما ظهر من أحوال المشركين المعارضين، فهذا واقع الكفار المعاندين فلا يخافون عذاب الله، وقد أمنوا غضبه وأليم عقابه، فكأنهم في إعراضهم آمنون عن توقع حصول غضب الله بهم، من أن تأتيهم غاشية من عذابه في الدنيا، والغاشية هنا عُقوبة مُجَلِّلة تَعُمُّهم وحادثة تحيط بهم من كل جانب، تقول غَشَّيْت الشيءَ تَغْشِيَة إذا غَطَّيْته[18]، أو تأتيهم الساعة- وهي

(15) ينظر: (ابن عطية، 2001، 3/ 225).

(16) ينظر: (السّبكيّ، 2003، 2/ 247).

(17) ينظر: (الجرجاني، 2004، ص: 111).

(18) ينظر: (ابن منظور، 1993، 15/ 127).

القيامة- بغتة فتحول بينهم وبين التوبة، ويصيرون إلى العذاب الخالد، ثم جاءت الفاصلة خاتمة لذلك الاستفهام الذي نبه على خطأ الموصوف الغائب بطريق التلويح لا التصريح، فالإيغال في قوله: (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) جملة اسمية في موقع حال، فهذه حالتهم التي لم يرتدعوا ولم يخجلوا من أمن عذاب الله وعقابه، فالإيغال وصفهم بعدم إدراكهم لبغتة ذلك العذاب، فزاد اللفظ وزاد المعنى لفائدة، فانتظم خيط المعنى من أول الآية حتى خُتمت.

وقوله تعالى: (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) [النحل: 45]، يوحي مطلع الآية الكريمة أن الاستفهام بـ(الهمزة) هنا إنكاري توبيخي، يحمل في طياته معنى التعجب من مكر المشركين واسترسالهم في المعاندة، لم يحسبوا خوفًا أن يُخسف الأرض بهم فيغيبوا فيها، وتعدى المفعول بحرف الباء، أو عذاب يصبحهم أو يمسيهم، وهذه حالة تبعث على العجب، واستفهام توبيخي ضُمِّن معنى متولدة من سياقاته كالتجهيل والتحقير، فم يقلعوا عن تدبير المكر بالنبي- ﷺ- بجميع الأساليب من الإيذاء والهمز واللمز وغيرها، فلو عرفوا قدر نبيهم حق القدر لما جعلوه يسير على قدميه، ولكن الجهل أعمى قلوبهم، فقوله تعالى: (أَفَأَمِنَ) دخل الاستفهام على الفعل الماضي فهو المسؤول، وهو بمعنى ما كان ينبغي عليهم أن يأمنوا العذاب، فالاستفهام ينكر على المشركين هذا الأمن ويوبخهم عليه، ويمكن إبراز معاني تمتزج وتتداعى من خلال سياق الآية، ولكن الحديث سيطول.

ثم إن هذا الخسف أو العذاب الذي سيحل بهم إن استمروا في مكرهم وكيدهم واقترافهم السيئات سيأتيهم (مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)، أي من مكان لا يترقبونه، ولا يستطيعون دفعه، ولاشك أن الأرض إذا فُتحت تحت الكافر أو المشرك وخسفت بصاحبها فقد جاء العذاب له من حيث لا يتوقع، أو يأتيه العذاب ويواجهه من طريق لم يألفه كما حل بقوم نوح فعذبوا بالطوفان، وكذلك فرعون وقومه، فالأولى لمن تدبر الآية أن يقف عند هذا الاستفهام ويتأمله، إذ كيف لقوم يأمنون عذاب الله وهم مقيمون على شركهم وكفرهم بالله، مسترسلون في المكر برسول الله-- ﷺ، ومع تلك الحال فهم آمنون من العذاب فهذا الأمر يستحق العجب.

وقوله تعالى: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿55﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ) [المؤمنون: 55- 56] ، بدأت الآية باستفهام مسلط على الفعل المضارع (أَيَحْسَبُونَ)، وهمزة الاستفهام إذا ولها الفعل المضارع فالمعنى حينئذ: لا ينبغي عليكم هذا الحسبان، وهذا الاستفهام يراد به الإنكار على المشركين المعاندين ، الذين تمادوا في باطلهم، واستقرت نفوسهم على الضلال والتكذيب، وأنهم يرون أن ما عندهم من بئر زمزم، والتجارة في الصيف والشتاء إلى الشام واليمن، إنما ذلك من الخيرات التي عجل الله بها لهم، وهذا يستلزم رضا الله عنهم، والإمداد العطاء والزيادة المتصلة[19]، فجاء هذا الاستفهام الإنكاري محملًا بالمعاني المتولدة من السياق، ومن تلك المعاني المتفرعة من الاستفهام: التوبيخ والتقريع والتجهيل والتعجب، فكيف بالذين بدَّلوا الحنيفية إلى الشرك، وملة إبراهيم –عليه السلام- إلى دين الآباء والأجداد، وهم يظنون أن الله –عليه السلام- قد رضي عنهم فعجل لهم بالمال والبنين، وجلب لهم الأرزاق وهم عاكفون على ضلالهم وانحرافهم عن الفطرة السليمة، وذلك في قوله: (نُسَارِعُ) والمسارَعةُ إلى الشيء المبادرة والتعجيل إليه[20].

فهذا الاستفهام يوبخهم ويتعجب من حسبانهم، ويقرعهم لينهاهم عن هذا الظن السيء، ولا يكون ذلك الإمداد والتعجيل والإملاء والمسارعة إلا استدراجًا وإمهالًا من الله لهم، لإزالة الحسبان من نفوسهم، أو لدفع حصوله، فإذا قامت عليهم البينة بإرسال الرسول- عليه السلام- بالآيات البينات الواضحات ثم كذبوه هان على الله

(19) ينظر: (الجوهري، 1987، 2/ 537).

(20) ينظر: (ابن منظور، 1993، 8/ 151).

أخذهم، فكانت تلك المسارعة والإمداد امتحانًا واستدراجًا لهم من حيث لا يعلمون، و(بَل) إضراب إبطالي عن المظنون لا على الظن الظاهر بالقرينة، فتستقبلهم سوء العاقبة وهم لا يشعرون بذلك الاستدراج الذي يعقبه العذاب، أي لسنا نسارع لهم بالخيرات كما ظنوا، فأضرب عن حسبانهم واستأنف جملة أنهم لا يشعرون بحكمة الله في ذلك الإمداد وأنه لاستمهالهم وفضحهم، كما قال ابن عاشور[21].

المبحث الرابع: دلالات التراكيب في سياق تمكين الفاصلة

وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿20﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) [النحل: 21]، وقد فرق ابن أبي الإصبع بين الفواصل كما أسلفت سابقًا[22]، ثم إني أجد أن هذه الآية وغيرها تدخل تحت إهاب التمكين، وهو من تقسيمات ابن أبي الإصبع للفواصل[23].

وفي مقدمة تحليل هذه الآية ينبغي أن ندرك القراءات في هذه الآيات فقد قرأ عاصم ويعقوب (يَدْعُونَ) بالياء للغيبة، وقرأ عامة القُرَّاء: (تَدْعُوْنَ) بالتَّاء على وجه الخطاب إلى المشركين[24]، وعلى كل القراءتين فالمقصود بهم الأصنام التي يعبدها الكفار، فهم مخلوقون كغيرهم، فعطْفُ الآية على قوله: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) [سورة النحل: 17] يدلُّ على أنَّ الأصنام لا تخلق شيئاً، فعبر عنها بالذين على زعم الكفار حين أنزلوها منزلة من يعقل، والمقصود نفي صفة الخلق والعلم والحياة عن الأصنام، وإثبات صفة المخلوق والجهل والموت وهذه عي العدمية التامة، ومن كان هكذا فهو غير إله، ولينظر إلى قوله تعالى: (يُخْلَقُونَ) أسندت الآية إلى نائب الفاعل لظهور الفاعل من المقام، أي: وهم مخلوقون لله تعالى، ففي عدم ذكرهم استهجان التصريح بهم، فالأصنام من الحجارة التي هي من خلق الله، ولا يخرجها نحت البشر إياها على صور وأشكال عن كون الأصل مخلوقا لله تعالى، كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم – عليه السلام- قوله: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات: 96] ، وقوله: (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ) إخبار وتأكيد ودلالة على عراقة وصف الموت فيها لأنها حجارة لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر، وأنها هي والعدم سواء، وليس فيهم شائبة حياة، وفي قوله: (وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) ختمت الآية بأمور عقدية وتفسيرية وبلاغية:

فالعقدية: دمجت قضية البعث مع إثبات الوحدانية، والمقصود من نفي شعورهم بالبعث تهديدهم بأن البعث الذي أنكروه واقع بهم لا محالة، والبَعْثُ حقيقته إثارةُ بارِكٍ أَو قاعدٍ، ومنه بعثت البعير إذا أثرته[25]، وفي القرآن غلب البعث على إحضار الناس إلى الحساب بعد الموت.

والتفسيرية: اختلف المفسرون في المقصود من قوله: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) فمنهم من قال: هم الأصنام على قراءة عاصم ويعقوب لتناسق الضمائر، ومنهم من قال الكفار على قراءة الجمهور كما بينا سابقًا[26].

والبلاغية: وهو الذي يعنينا في مقام التحليل وهو تمكين الفاصلة، فقد ختمت الآية بعدم شعور الأصنام بوقت بعث الكفار بدلالة (أيَّان) وهي اسم يدل على السؤال عن الزمان مركب من "أي" الاستفهامية و"آن" وهو

(21) ينظر: (ابن عاشور، 1984، 18/ 76).

(22) ينظر: (ص: 13).

(23) ينظر: (ابن أبي الإصبع، د ت ، ص: 91).

(24) ينظر: (الطبري، 2000 ،3/ 225)، و(القرطبي، 1964، 10/ 94).

(25) ينظر: (ابن منظور، 1993، 2/ 116).

(26) ينظر: (ص: 20).

الوقت، فمعناها فما يشعرون أي وقت يبعثون، فبينت الآية في أولها أنهم أمواتٌ وعدمٌ لا حياة فيهم أصلًا، والفاصلة تمكنت في مكانها غير نافرة ولا قلقة، قد تعلق المعنى بها تعلقًا تامًا، واستقرت بقرار إثبات البعث ووحدانية الله تعالى.

المبحث الخامس: دلالات التراكيب في سياق التكميل أو الاحتراس

وقوله تعالى: (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) [النحل: 26]، الآية تتحدث عن مكر قوم سبقوا مشركي وكفار قريش، ووضحت ما لديهم من حيل وخداع لزرع الفتنة، ونصب شرك التآمر على الرسل، وأن هذه الحيل ستسقط على رؤوسهم كالبيت الذي له سقف فسقط عليهم من فوقهم، وهذا يسمى عند البلاغيين تكميل أو احتراس، وهو: "أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، وهو ضربان: ضرب يتوسط الكلام، وضرب يقع في آخر الكلام"[(27)]، والضرب في هذه الآية وقع في وسطها، فالاحتراس في قوله تعالى: (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ) فالسقف قد يكون أرضا بالنسبة لغيرهم، فإن كثيرا من السقوف تكون أرضا لقوم وسقفا لآخرين، فانتفى الاحتمال بقوله: (فَخَرَّ) و(عَلَيْهِمُ) لأنها لا تستعمل إلا فيما يسقط من الأعلى إلى الأسفل.

فهذه عاقبة صُدّ السائلين عن الإسلام، بأن يقع لهم ما وقع فيه أمثالهم من الخزي والعذاب، وأنهم خائبون في صنعهم كما خاب قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون، الذين مكروا برسلهم من الاستبقاء على كفرهم وشركهم فقد سمي ذلك مكرًا بالمؤمنين، قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) [الأنعام: 123]، فالمكر قصد الضرر بالناس في صورة مشوبة بالنصح والنفع، وعندما أتاهم ذلك العذاب المزلزل لأركانهم أتبعها بقوله: (مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)، والمعنى: أن العذاب الذي نزل بهم بغتة جاءهم في ساعة لا يشعرون بها، فنفي الشعور والعلم به أشد نكاية عندما يحل به؛ لما يصحب ذلك من الهول والرعب الشديد، بخلاف ما يأتيهم بشعور وإدراك فإنه لا يحدث في النفس ما يحدثه العذاب الفجأة، فتأمل هذه الدقائق وتدبر تلك المعاني.

وقوله تعالى: (كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿200﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿201﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [الشعراء: 200- 202]، وردت صفة عدم الشعور في سورة الشعراء لتظهر أحوال المجرمين الذين كذبوا بالقرآن الكريم.

والتعبير بالفعل الماضي (سَلَكْنَاهُ) في أول الآية يفيد وقوع الحدث، أو حدوثه بشكل مطلق، تقول سلكت الشيء في الشيء فانسلك، أي أدخلته فيه فدخَل[(28)]، والإعجاز في ذلك الفعل أنهم مستمرون على عدم الإيمان، مستمرون في تكذيبهم بالقرآن في حين أنه نزل بلسان عربي مبين، فهو أمر مضى ولكنه مستمر ليقع التحدي على كفار قريش، فأجرموا بعد شركهم بهذا التكذيب، مع معرفتهم دلائل صدقه من أخبار علماء بني إسرائيل الذين يقيمون في المدينة، ومع ذلك لم يؤمنوا به، وفي قوله (حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) للغاية، فإن الإيمان بالقرآن سيزيل عنهم عذاب الدنيا والآخرة، لأن إتيان العذاب لهم ستكون حالته بغتة فقد جاء بعد فاء المعقبة، أي مباغتًا لهم، والتكميل في قوله: (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) زاد معنى ذلك الإتيان تأكيدًا ووضوحًا، فلا يملكون دفعه أو النجاة منه؛ لأن مدلول (بَغْتَةً) يفجأه فلا يشعر به أحد.

---

(27) ينظر: (القزويني، 1998، 3/ 208- 210).

(28) ينظر: (الجوهري، 1987، 4/ 1591).

وقوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [النمل: 18]، تحكي الآية الكريمة نداء نملة لعامة النمل، فيه فزع وخوف ورجاء وإنذار وتحذير واعتذار.

حَطَمْته حطما أي كسرته[29]، ولا الناهية تدل على النداء المتكرر والتحذير من الجيش السليماني، والنون توكيد للنهي، وتسمية سليمان في كلام النملة تسمية تشريف لملك الأرض، فلم تقل: (جنود سليمان) بل ذكرته باسمه وعطفت بجنوده، ومن المعلوم أن الإنسان إذا سار على قدميه لا يمكن إن يتفادى النمل وتلك الحشرات الصغيرة التي تمر تحته، فقامت تلك النملة محذرة ومنذرة قومها أن يدخلوا البيوت ويسكنوا فيها، ثم استدركت واعتذرت بعد أن أنذرت، ووصفت النبي سليمان- عليه السلام- وجنوده بالصلاح بالرأفة والرحمة والعدل، فقالت: (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) تكميل حسن، فضرب الله لنبيه سليمان –عليه السلام- هذا المثل بالوحي من دلالة نملة، وخلَّد كلامها في كتابه الكريم معنى ولفظًا، فزاد التكميل للآية تأكيدًا ورمزًا ووضوحًا وتبيينًا.

وقوله تعالى: (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿49﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [النمل: 49- 50]، وهذا موضع آخر في سورة النمل، ساقه الله في معرض قصة تآمر قوم ثمود على صالح- عليه السلام- ومحاولة قتله.

تفرقت قصة قوم ثمود في القرآن الكريم، وفي سورة النمل ذكر من هذه القصة ما كان فيه مناسبة بالسورة نفسها، ففي هذه الآية الكريمة ذُكر المكر والتدبير على النبي صالح- عليه السلام- من قومه، فأُتي به على صيغة التفاعل (تَقَاسَمُوا)، توحي بأن هذا الكيد والمكر الخفي تضافر بمشاركة جماعية من أولئك الرهط في قوله تعالى: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) [النمل: 48]، وتدل الألفاظ على تأكيد إرادتهم الدنيئة تلك الصيغ المؤكدة في الفعلين في قوله: (لَنُبَيِّتَنَّهُ) (لَنَقُولَنَّ) والضمير المنفصل (وَإِنَّا) واللام المزحلقة المؤكدة للاسم (لَصَادِقُونَ)، ثم أكد مكرهم بالمفعول المطلق(مَكْرًا) ليدل على عظمته في جنس المكر، وفوق ذلك الكيد أرادوا أن يجحدوا بعدم قيامهم بتلك الفعلة الشنيعة (مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ)، فتلبسوا بشهادة الزور على قتل النبي الكريم وأهله، فكان رد المكر عليهم من الله ببطلان كيدهم وعدم وقوعه، فلم ينالوا من ذلك الكيد إلا الخُسران والعذاب الأليم، وأنهت الآية هذه الأحوال بطريق التكميل فردُّ المكر عليهم كان بطريق عدم شعورهم به (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) فتدبير الله –عليه السلام- لا يُرى ولا يُعلم كنهه، فانظر إلى الإيجاز والتوكيد مع التكميل في الآية قد نزع بما اختلجت به نفوسهم، وتكلمت به أفواههم، وتحركت به أفعالهم، وفيه إيماء ورمز إلى أن الاعتبار بمكر الله بهم هو المقصود من سوق القصة تعريضا، وأن عاقبة أمر الرسول –عليه السلام- مع قريش أن يكف الله عنه كيدهم وينصره عليهم، وفي ذلك تسلية له على ما يلاقيه من قومه.

وقوله تعالى: (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿9﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿10﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [القصص: 9- 11]، تحكي الآيات خبر ثلاثة نساء، أم موسى –عليه السلام- ، وأخته، وزوجة فرعون.

اجتمع في هذه الآيات خمسة عشر فعلًا متنوعًا، أمر وماض ومضارع، ولا شك أن الأفعال تدل على معاني في ذهن السامع، ففعل الأمر يُراد به طلب القيام بالشيء أو العمل في زمن المستقبل، وذلك في قوله: (قُصِّيهِ)، فتتبعت أخته أثر موسى- عليه السلام- فجاءت بالخبر اليقين، والفعل الماضي يدلُّ على الحدث الحاصل في وقتٍ قد مضى، أي

(29) ينظر: (الجوهري، 1987، 5/ 1900).

حدث وانتهى، وذلك في قوله: (قَالَتِ) (عَسَىٰ) (أَصْبَحَ) (كَادَتْ) (رَّبَطْنَا) (بَصُرَتْ)، وهذا الفعل اشتركت فيه ثلاثة نساء امرأة فرعون وأم موسى- عليه السلام- وأخته، ثم الفعل المضارع الذي يدلّ على واقعة أو حدث يجري في الزمن الحالي والمستقبل خلال زمان المتكلّم، وذلك في قوله: (تَقْتُلُوهُ) (يَنفَعَنَا) (نَتَّخِذَهُ) (يَشْعُرُونَ) (لَتُبْدِي) (لِتَكُونَ)، واشترك في القيام بالفعل المضارع امرأة فرعون وأم موسى –عليه السلام- ، ثم إن المتأمل في هذه الآيات ليرى حركة الأفعال مع الحوار بين امرأة فرعون وفرعون، وبين أم موسى- عليه السلام- وأخته، وتابوت في رضيع ترغب امرأة فرعون في نجاته من الذبح، فقدر الله نجاة موسى- عليه السلام- بسببها، فحذفت المسند إليه (هذا الطفل) وصرحت بالمسند في قولها: (قُرَّتُ عَيْنٍ)، فبدأت بنفسها في (لِّي) قبل ذكر فرعون (وَلَكَ) عرفت مكانتها عنده فأرادت أن تبتدره حتى لا يصدر عنه الأمر بقتل موسى- عليه السلام- ثم نهتهم عن قتله وقدمت السبب بأنه وازع المحبة وإرادة الولد، فالنظم القرآني اقتضى هذا الترتيب البليغ، فزال ما خامر نفس فرعون بعد سماع قول امرأته من خشية فساد ملكه، فأقنعت فرعون وقومه، ثم ختمت الآية بالتكميل فزادت المعنى توكيدًا ووضوحًا (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أي أن الغائبين عن هذا التدبير لا يعلمون خفي إرادة الله بهذا النبي الكريم.

ثم تلتها آية تصف قلب أم موسى، الذي تحول من شغل إلى الفراغ إلا من ذكر موسى- عليه السلام- وهذا قول ابن عباس[30]، والفؤاد قد يعبَّر به عن العقل[31]، فجمعت الآية بين ضعف الأمومة وثقتها بالله- سبحانه وتعالى- والربط على القلب توثيقه بالصبر، ثم تلتها الآية الثالثة بقوله: (قُصِّيهِ) فعل الأمر الدال على الطلب، والقص اتباع الأثر[32]، وفي قوله: (بَصُرَتْ) تقول العرب: بَصُر بَصارةً، والتَبَصُّرُ التأمُّلُ والتَعَرُّف[33]، فانطلقت أخته تتعرف أخباره وتتبعه بالنظر عن بعد، وتتأمل أحواله، ثم ختم الآية الثالثة بالتكميل كما ختم الآية الأولى فقال: (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أي أن الغائبين عن هذا التدبير الرباني كفرعون وجنوده حين التقطوه لا يدركون أن أخته تراقب أحوال موسى –عليه السلام- ، وذلك من حذق أخته في كيفية مراقبته، ولا يعلمون خفي إرادة الله بهذا النبي الكريم، الذي سيزول على يديه ملكهم[34]، فجاءت الأخبار مرتبة في هذه الآيات على وفق ترتيب مضامينها، ووقع تدبير الله المحكم بإيجاز الألفاظ، واختزال المعاني الكثيرة، وحركة الأفعال الخمسة عشر.

وقوله تعالى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [العنكبوت: 53]، من عجيب أمر الكفار أنهم يستعجلون العقوبة والعذاب، كأن الرغبة في حصوله لا تصدر عن عاقل، مع ما يقترن ذلك من استهزاء بالرسول –عليه السلام- أو الاستخفاف بالوعيد، أو الطعن في مصداقية الرسالة، والآية صريحة ومؤكدة وقوع العذاب بلام القسم ونون التوكيد، ولكن الذي يحول بين وقوعه ذلك الأجل المسمى، القدر المحتوم الذي شرعه الله وقدره بحكمته، فقد يتأخر العذاب ليعطوا مهلة لا عذر بعدها، فإذا جاء الموعد المقدر له نالوا جزاء إنكارهم وجحودهم واستهزاءهم العذاب فجأة، فلا يجعلهم يشعرون بقربه، ولا يعلمون بوقته، فيحل عليهم كما حل بالأقوام السابقة في قوله تعالى: (كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) [الزُّمَر: 25- 26]، وهذا موضع آخر يحكي قدوم العذاب، فقوله: (حَيْثُ) ظرف مكان، أي جاء العذاب على الذين من قبلهم من مكان لا يشعرون به، فسورة العنكبوت والزمر مكيتان، فالرسول –عليه السلام- أنذر قريشًا وحذرهم العذاب العاجل، فقاموا بالاستهزاء بطلبه: (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) [ص: 16]، فحل

(30) ينظر: (الطبري، 2000، 19/ 527).

(31) ينظر: (الجوهري، 1987، 1/ 204)

(32) ينظر: (ابن منظور، 1993، 7/ 75)

(33) ينظر: (الجوهري، 1987، 2/ 591)

(34) ينظر: (الرازي، 1999، 24/ 581).

بهم يوم بدر (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، فالتكميل زاد المعنى تأكيدًا ورمزًا ووضوحًا، فلم يتوقع الموصوفون بضمير الغيبة تلك الهزيمة المنكرة، فقتل سبعون فجأة وأسر سبعون وفر الباقون[35]، مع ما أعد لهم من العذاب الأليم العظيم المهين.

النتائج:

1- أن جملة (وهم لا يشعرون) حالية، وقد جاءت لتصوير مواقف الغائبين وإحيائها بنقلها كأنها تحدث الآن، وذلك بطي الحكاية والقول، وقد يتبادر إلى الذهن الاستغناء عن الحال وذلك لوجود المرادف، أو التكرار، أو الاستلزام، أو البداهة، وكان ذكرها لأغراض ظهر لي منها: التركيز بشأن المذكور وبيان أن غيره لا يغني عن تعيينه، وإرادة الحصر فيه بعينه، وغيرها.

2- الغائبون الموصوفون بعدم الشعور كفار ومشركون ومنافقون إلا في آيتي سورة يوسف والنمل، فالغائبون أخوة يوسف ونبي الله سليمان– عليه السلام- وجنوده، والجملة الحالية في سورة يوسف: (وهم لا يشعرون) جاءت لتطمئن نبي الله يوسف– عليه السلام- وأنه سيذكرهم بموقفهم معه، وفي سورة النمل: (وهم لا يشعرون) كانت اعتذارًا لهم ورفع الحرج، بعكس الآيات التي وصفت حال الكفار والمشركين والمنافقين، فحالهم التكذيب والإضلال والإهلاك والمكر ونفي الساعة والسخرية...إلخ.

3- أن علة التمايز بين دلالتي الاسم والفعل، أن الاسم سابق في الوجود على الفعل، فليس من فعل إلا وله فاعل، لذا فهو أدل على الثبوت من الفعل، الذي هو ناشئ عن الذات، فهو يدل على الحدوث والتجدد، كفعل يخادعون ويضلون ويهلكون ويمكرون.

4- أن الحال المصدر يقع كثيرًا في مواضع تقتضي عمومًا أو شيوعًا، ويدل على الإيجاز، مثل: (بغتة).

5- دلالة القصر بالنفي والاستثناء جاءت بنفي الفعل وإثبات الاسم، كما في صفة الخداع في سورة البقرة، والضلال في آل عمران، والإهلاك والمكر في الأنعام، وعلم الغيب في النمل، وانتظار الساعة في الزخرف، وأما القصر بتقديم المسند إليه وبـ(إنما) جاء مسلطا على الاسم.

6- الاستفهام جاء بأم الباب هي (الهمزة) فقط، وهي تستعمل لطلب التصديق أو التصور.

7- شواهد الإيغال في الآيات المختارة وافرة وثابتة، وهذا يرجح قول ابن أبي الإصبع، بخلاف ابن رشيق الذي خصه بالشعر.

توصيتان:

1- دراسة القضايا الخاصة الدقيقة في النظم القرآني أجدى- في نظري- من دراسة الموضوعات والظواهر العامة، لما في الأولى من التركيز والحصر، فالنتائج تكون أدق وأحكم.

2- دلالات التراكيب في القرآن جديرة بالوقوف عندها وتحليلها وتعليلها، يتيح مادة تطبيقية واسعة يفاد منه.

المصادر والمراجع:

1- ابن أبي الإصبع. عبد العظيم. (د. ت). بديع القرآن. د ط.

2- ابْن القَيِّم الجَوْزِيَّة. محمد. (2006). بَدَائِعُ الفوَائِدِ. ط 1. دار عالم الفوائد، مكة المكرمة. السعودية.

3- ابن عاشور، محمد. (1984). التحرير والتنوير. د ط. الدار التونسية للنشر. تونس.

4- ابن عطية، عبد الحق. (2001). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ط 1. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

(35) ينظر: ابن هشام، 1955، 1/ 714).

5- ابن فارس، أحمد، (1979). معجم مقاييس اللغة. د ط. دار الفكر. دمشق. سوريا.
6- ابن منظور، محمد. (1993). لسان العرب. ط 3. دار صادر. بيروت. لبنان.
7- ابن هشام، عبد الله. (1985). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ط 6. دار الفكر. دمشق. سوريا.
8- ابن هشام، عبد الملك. (1990). السيرة النبوية. ط 1. دار الجيل. بيروت. لبنان.
9- الجرجاني، عبد القاهر. (2004). دلائل الإعجاز. ط 5. مكتبة الخانجي. القاهرة. مصر.
10- الجوهري، إسماعيل، (1987). الصحاح في اللغة. ط 4. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان.
11- الرازي، محمد. (1999). مفاتيح الغيب. ط 3. دار إحياء التراث العربي– بيروت. لبنان.
12- الزمخشري، محمود. (1987). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. ط 3. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان.
13- السّبكيّ، أحمد. (2003). عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. ط 1. المكتبة العصرية. بيروت. لبنان.
14- السكاكي، يوسف. (1998) مفتاح العلوم. د ط. دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.
15- الطبراني. سليمان الشامي. (د. ت). المعجم الأوسط. دار الحرمين – القاهرة. د ط.
16- الطبري، محمد. (2000). جامع البيان في تأويل القرآن. ط 1 ، مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان.
17- العسكري، الحسن. (2006). الصناعتين. ط 1. المكتبة العصرية. بيروت. لبنان.
18- القزويني، جلال الدين. (1998). الإيضاح. ط 4. دار إحياء العلوم. بيروت. لبنان.
19- القيرواني، الحسن، (2000). العمدة. ط 1. القاهرة. مصر.
20- الهروي. القاسم. (1983). الأيمان. ط 2. المكتب الإسلامي. دمشق. سوريا.